

الأنثروبولوجيا والملحون - قراءة في البعد التواصلية -

**Anthropology and Composer - a reading in the communicative dimension**

د/ عبد القادر لصهب: lashababdelkader@gmail.com

الجامعي - مغنية - المركز

تاريخ الاستلام: 2019/12/26 تاريخ القبول: 2019/12/29 تاريخ النشر: 2019/12/31

**الملخص:**

يشكل الشعر الملحون جزءا من الذاكرة الجمعية التي توطر وعي الجماعة بوجودها الآني والماضي ، والمخزن لخبراتها الاجتماعية وممارساتها الثقافية ، وتوجهاتها السلوكية والاعتقادية ، وهو بذلك يمثل معطى شموليا من معطيات مفهوم " الثقافة الشعبية " ، وشكلا من الأشكال التعبيرية لها ، وهو بالرغم من قيمته الدراسية والمعرفية إلا أنه لا يزال حبيس نظرة سكونية تضيق عليه الخانات وتحصره في الدوائر المعتمة، ذلك أن كثيرا من النخب الثقافية العربية عموما ، والجزائرية على وجه الخصوص ، ظلت تنظر إليه باعتباره صورة مشوهة للتعبير الشعري، وشكلا من أشكال انحطاط الثقافة الأدبية ، في حين عده البعض توجهها يضرب الخيارات " القومية " في صميم مبدئها الذي تقوم عليه ، حيث هو بمثابة تفتيت / تشتيت للوحدة اللغوية التي تمثل الدعامة الأساس للقومية العربية ، والتي يمثل الأدب تعبيراً جماليا لها .

ومن خلال هذه الورقة البحثية نحاول تسليط ضوء البحث المعرفي عن الخصائص الأنثروبولوجية لقصيدة الملحون وكذا التعرّيج على اشتغالات الأنثروبولوجيين الاستعماريين على نص الملحون باعتباره وثيقة ترسم العقلية الشعبية وتوطرها في حين.

**الكلمات المفتاحية :**

الأنثروبولوجيا - الملحون - الأنثروبولوجيا الكولونيالية - الممارسة الثقافية - الوعي الجمعي.

**Abstract :**

The Melhoun poetic forms part of the collective memory that frames the group's awareness of its immediate and past existence, its store of social experiences and cultural practices, and its behavioral and ideological orientations. It thus represents a comprehensive source of the concept of "popular culture" and a form of expressionism. Although many of the Arab cultural elites in general and the Algerian people in particular have continued to view it as a distorted image of poetic expression and a form of degeneration of literary culture, , While others count a trend that hits the "national" choices at the heart of its underlying principle, which is a fragmentation of the linguistic unity that is the cornerstone of Arab nationalism, of which literature is an aesthetic expression.

In this paper of research we try to shed light on the research of the anthropological characteristics of the saline poem and on the exploitation of colonialist anthropologists on the text of the Mehloun as a document that shapes and frames the popular mind.

**Key words :**

Anthropology – Melhoun – Colonial Anthropology – Cultural Practice – Collective Awareness

المؤلف المرسل: د/ عبد القادر لصهب: lashababdelkader@gmail.com

**1- مقدمة :**

يعتبر الملحون من الناحية التعبيرية والتصويرية رافدا مهما للاشتغال المعرفي ، وذلك لما يحتزنه من طاقات تعبيرية وتصويرية مبثوثة في النص وهو جزء من الثقافة الشعبية في صورتها وأتماطها الجمالية، التي تنم عن معتقدات وتصورات راسخة تكاد تكون السمة الغالبة للعقلية الشعبية - إن لم تكنها فعلا - ومن الخصائص التعبيرية للملحون أنه يشكل مخزونا لمجموع " المقدّسات الشعبية " كالقصص الديني وسير الأنبياء وحكايا الأولياء ، وغيرها... ومن ثم أخذ النص الشعري الملحون حيويته وديناميته الملفتة باعتباره نصا مفتوحا على أعمال طرائق الاشتغال النقدي / القرائي .

بيد أن التساؤل الذي يفرض نفسه بإلحاح في هذا المقام هو : كيف يمكن اعتبار الشعر / النص الملحون مساحة للحفر الأنثروبولوجي ؟ مع العلم أن الأنثروبولوجيا بحث ميداني يتأسس على الملاحظة المباشرة ؟ والإجابة عن هذه الإشكالية تسترعي أولاً الوقوف على علاقة الأنثروبولوجيا بالمعطي الأدبي عموماً، وكذا مدارس قيمة الملحون الأنثروبولوجية ، وهي عناصر وإن بدت متشابكة إلا أنها تأخذ مناحي مختلفة في الدرس الأنثروبولوجي عند الاشتغال على الملحون .

## 2- البعد الأنثروبولوجي لقصيدة الملحون :

يمثل الإبداع الإنساني - عموماً - تجسيدا لخلفيات ثقافية مترسبة في وعي الذات بوجودها وبحثها الدائم عن التماهي مع المطلق والمثال / المتسامي ، ذلك أن الفن عموماً تمثل مجموعة القيم المتحكمة في هذا الوجود ، وهو بذلك تصوير للإنسان في تعامله مع ما هو معقول / مدرك غير قابل للتجربة ومع ما هو ملموس / حسي يخضع لتأطير التجريب والملاحظة .

وقد شكل الإنسان دوما الحلقة الأساس في فلك المعارف التي تبحث في الإنسان من حيث هو وجود / كيان تحكمه توجهات سلوكية واعتقادية ذات مرجعيات اجتماعية وثقافية . فالسلوك الإنساني خاضع لتأطير داخلي نابع من ذات الإنسان وآخر خارجي تبسطه قيم وجود الإنسان / الفرد داخل الجماعة . إن عضوية الفرد في جماعة ما تجعله تحت سلطة التوجه الجمعي ، بما تحمله هذه العضوية من محفزات تعبيرية تنم عن ثقافة الجماعة التي ترتسم في شكل ممارسات سلوكية أو قولية .

ومن هنا توخت العلوم الإنسانية الكشف عن عمق الوجود الإنساني انطلاقاً من مدارس مختلف أشكاله التعبيرية ، ومحاولة رصد مرجعياتها المؤطرة لها ، حيث إن " مثل علوم الفلكلور والإثنولوجيا والأنثروبولوجيا وعلم اللهجات والتاريخ الثقافي وعلم الاجتماع الثقافي والنقد الأدبي الحديث واللسانيات والسيميائية تكشف عن حقيقة طبيعة أشكال التعبير الشعبي ، من حيث أشكالها البنيوية من جهة ، ومن جهة أخرى من حيث مضامينها الدلالية والاجتماعية والثقافية والنفسية والأدبية والتاريخية والحضارية والأيدولوجية "1.

ومن ثم تكون المنظومة الاجتماعية خاضعة للمدونة الثقافية ، باعتبارها معطى وإفرازا لما هو متحذر في هذه المدونة ، وتكون الإفرازات الثقافية ، كالمسرح والفن عموماً والأدب ، بمثابة تعبير عما هو متروك في وعي الجماعة من قيم معاملاتية وسلوكية وتوجهات اعتقادية / إيمانية ، سواء كانت دينية أو أسطورية .

وعليه يضحى من الضرورة البحث في القيم الثقافية للجماعة بغية الوقوف على أطرها الوجودية ، سواء أكانت أطراً اجتماعية أم سياسية أم اقتصادية . و " ضمن هذه المدونة يلح ( جيلبير دوران ) ، في إحدى خلاصاته حول دراسات الأساطير ، على نقطة أساسية ، حيث يرى أنه على عكس المفاهيم المعتمدة من طرف الباحثين الجامعيين لا يمكن الفصل بين علوم الثقافة ، مثل النقد الأدبي والأدب ، وعلوم المجتمع . ويبدو أن التوجه نحو سوسولوجيا بدون اعتماد الجانب الثقافي للمجتمع ، أو التوجه نحو الثقافة دون تأصيل اجتماعي ودون ذلك الأساس " الشعبي " كما تمناه (ريشارد فاقنر) هو في حد ذاته اللامعنى المطلق . إذاً فالقطيعة بين الثقافي والاجتماعي غير واردة في توجه هذا الباحث الأنثروبولوجي ، وفي اختياراته الإبيستيمولوجية فإن العلاقة بين النصوص الثقافية ، والأدبية بخاصة ، وبين السياقات الاجتماعية التي أنتجتها واضحة جدا "2.

والبحث في هذه المنظومات إنما يتطلب حفرا معرفيا عميقا في مختلف أشكال التعبير الشعبي ، حتى تتسنى عملية فهم التركيبة الثقافية للجماعة ؛ تركيبة تتمثلها الإبداعات الشعبية ، بمختلف أنماطها الفنية والأدبية ، وتكون الباعث على انبثاقها . فالنص ، كإفراز ، هو عبارة عن محصلة لمجموع العناصر الفاعلة في الوجدان ، سواء أكانت عناصر نفسية أم اجتماعية أم ثقافية أم تاريخية أم دينية .

ودراسة أي نص لا بد وأن تراعي الظروف المنتجة له ، حيث " تعتبر الظروف المحيطة والمؤطرة لإنتاج النص حجة في حد ذاتها ، تمهّد ويبلور الفكرة الأساسية لعملية الكتابة ، أي ما قبل النص... وعليه فإن دراسة النصوص لا بد لها أن تأخذ بعين الاعتبار هذه الجوانب المختلفة التي أنشأت الكتابة والإنتاج الأدبي . وعلى خلاف الشعرية البنيوية التي كانت تركز في بداياتها الأولى على أدبية النص في حد ذاتها ، مختزلة بذلك النصوص إلى بنيات لغوية وأنساق أسلوبية ، دون إلحاقها بالسياق التاريخي والاجتماعي ، فإن تطور هذه التوجهات العلمية نحو السيميوطيق جعلها تخضع إلى مقاييس جديدة ، ومن ضمن هذه المقاييس يمكن اعتبار النص الأدبي خطابا يملك آلية داخلية ، لكنه يرتبط بالسياق الذي أنتجه "3

ومنه تتجسد القيمة الأنثروبولوجية للمعطى الأدبي في اعتباره وثيقة لفهم عقلية الشعب والوقوف على أنماطه التفكيرية ومذاهبه الاعتقادية وتوجهاته السلوكية .

والشعر الملحون ، باعتباره نصا أدبيا ، رافد مهم من روافد الدراسة الأنثروبولوجية ، وذلك كونه مظهرا من مظاهر النمط التفكيري للجماعة وتعبيرا صادقا عن ثقافتها ، وتمثيلا حقيقيا لأذواق الجماهير وقيمها ومثلها العليا ، فالثقافة الشعبية ، في مقابل الثقافة الرسمية ، تتمسك دوما بحقها التعويضي في تفسير الأحداث والتعرض للقضايا ، ولا يزال الدور الاجتماعي - الثقافي للشعر الملحون مطلوبا باعتباره أداة فاعلة في خدمة الجماعة ، فهو نتاج ثقافي واجتماعي يرتبط بوجود الجماعة الإنسانية نفسها .

ومن ثمّ " اهتم الأنثروبولوجيون بالنصوص الشعبية ، باعتبارها ترجمة إبداعية للأنساق وللنظم الاجتماعية والثقافية والسياسية والحضارية والدينية التي أوجدتها والتي تكفلت أيضا بها من حيث الإبداع والاستثمار "4.

وتتجلى الأهمية الأنثروبولوجية للشعر الملحون كذلك في المرجعية الثقافية للنص ؛ مرجعية تكون مرتبطة اجتماعيا ببيئة الشاعر وواقعه الذي يحياه ، حيث أن " منطلقات الشعر تنبع من واقع الحياة التي يعيشها الشاعر ، ذلك أن القضايا التي تحظى باهتمام الشاعر الشعبي ذات ارتباط وثيق بمحوم المجتمع وآلامه وجراحه ، كما تعبّر نصوص الشعر عن تصور الحياة التي يريدتها الشاعر . ولذلك يمكن القول بأن الشعر الشعبي يعبر عن قضايا البيئة المحلية التي يرتبط بها الشاعر ويعبر عن مشاكلها في حدود تصوره وإدراكه لأسباب القضايا التي يطرحها "5.

وبذلك تكون الدراسة الأنثروبولوجية للنص الشعري الملحون بمثابة غوص في الأعماق الفكرية للشعب ، وذلك ما قد يؤهل الباحث في النص الملحون لأن " يدرك الأسس المعرفية والثقافية والتاريخية والحضارية والأيدولوجية والعقائدية التي راهن عليها هذا الشعب منذ لحظات ميلاده الأولى في هذا الوطن وعلى هذا التراب "6.

وقد أولى الأنثروبولوجيون عناية فائقة للنتائج الثقافية والأدبية الشعبية ، لأنها " تشكل مادة خصبة تكشف عن أنماط التفكير الشعبي وعن رؤية للحياة ... ومعرفتها تفتح المجال واسعا للأنثروبولوجي لمعرفة الشعوب وثقافتها . ومن هذا المنطلق تم التأكيد على أن مجال التعاون المعرفي وثيق ومشارك بين الأنثروبولوجيا ودراسات أشكال التعبير الشعبي ، هذا

بالإضافة إلى أن الأنثروبولوجيا كعلم يهتم بالإنسان كذات ثقافية واجتماعية وقد ولد أصلا في أحضان الثقافة الشعبية، والتي تشكل أشكال التعبير الأدبي الشعبي عنصرا قويا بامتياز ، والتي عرفت تداخلا كبيرا بينها وبين الأنثروبولوجيا ، ويرجع سبب هذا التداخل في دراسة ثقافة الإنسان وإبداعاته الفكرية والفنية إلى أن علم الأنثروبولوجيا يسعى إلى دراسة عامة وشاملة ومتكاملة عن الإنسان كذات ثقافية واجتماعية<sup>7</sup>.

وشاعر الملحون يعبر بعفوية عن قضايا الجماعة " إلى درجة انصهاره في الذات الجماعية ، أما هو فصار مجهولا ، وكان - على حد تعبير النيبوين في منهجهم - " موت المؤلف " ... لكن الشاعر الشعبي لم يموت ، بل هو حي يسكنه روح عصره ومجتمعه ، وهو يتمثل قضايا الوطن ... يقف عند حدود العلاقات المتداخلة التي تربط الناس ببعضها البعض ... سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو فكرية أو عاطفية ، وسواء كانت في الماضي أو في الحاضر ، فالشاعر الشعبي يقف دائما إلى جانب قضايا مجتمعه ، يتغنى بجميع مظاهر الحياة فيه مهما كانت بسيطة<sup>8</sup>.

وبذلك فالدراسة الأنثروبولوجية للشعر الملحون تسمح بوضع هذه المادة في أطرها المعرفية / الثقافية الصحيحة ، ف " الشعر الشعبي وسيلة نستغلها لنكشف الواقع الذي يتحدث عنه الشاعر الشعبي في محاولة لمعرفة الذهنيات المختلفة ومقارنتها مع بعضها البعض ، ومع محيطها المادي واستخلاص العلاقات البنينة داخل المجتمع الجزائري<sup>9</sup>. فقصيد الملحون انعكاس لما يضح به المجتمع من مفاهيم اعتقادية وطقوس ممارساتية ، وهي بذلك منظومة ثقافية جماهيرية / شعبية متشعبة بالقيم التي تبسطها هذه الثقافة . ومن ثم يأخذ الملحون قيمته المعرفية التي تجعل الاشتغال عليه بمثابة حفر في عمق الثقافة الشعبية.

ومدونة الشعر الملحون مليئة بالنماذج الثقافية التي تؤهله لأن يكون مبحثا أنثروبولوجيا بامتياز ؛ نماذج تعبر عن حقيقة وجود الجماعة وتوجهاتها التفكيرية وأنماط رباطاتها الاجتماعية .

وبناء على ما تقدم من قيم فنية ومعرفية للشعر الملحون يمكن القول أن كثيرا من الأحكام الصادرة في حقه لجديرة بالمراجعة ، من خلال توسيع الرؤى ومحاولة بسط نظرات أكثر شمولية نحو هذا المعطى الثقافي الذي لا يمكن التنكر له أو الحط من قيمته الثقافية والفنية والمعرفية.

### الملحون في المنظومة الأنثروبولوجية الكولونيالية :

شكلت الأشكال التعبيرية الشعبية - القومية منها والممارسات - حقولا خصبة لعديد الدراسات الانثروبولوجية الكولونيالية التي كانت تتوفى تقديم / عرض الثقافة الشعبية الجزائرية - عموما - على طرائق الاشتغال المعرفي بغية الإلمام بالتوجهات والميولات الثقافية والعادات الاجتماعية للجماهير الشعبية ، لتسهيل عملية السيطرة عليه وإخضاعه وفق الرؤى أيديولوجية استعمارية بحتة.

غير أنه لا يمكن إنكار ما قدمته الدراسات الاستشراقية الكولونيالية من خدمات جليلة لبعض النماذج التعبيرية الشعبية ، كالشعر الملحون الذي كانت مهمة من البدايات الأولى لتدوينه من إفرازات الجهود الكشفية لعمق الإبداع الشعبي من لدن الأنثروبولوجيين الاستعماريين ، إذ ما يحسب لهؤلاء أنهم انتشلوا كثيرا من التراث الشعري الملحون من الدوائر الضيقة للتداول الشفهي إلى فضاءات التدوين ، التي صيانة له من رتبة الضياع .

وبذلك كان الملحن خادما ومخدوما ، فبالرغم مما قدمه الملحن من قيم معرفية مرتبطة بالتوجهات الجمعية والفردية شكلت قيما مضافة إلى المحصلة الرؤيوية للاستعمار ، إلا أنه استفاد كونه ضمن البقاء لكثير من عيونه ونصوصه .

ومن ثمّ نعمل على بسط ضوء البحث على الجهود التدوينية للشعر الملحن من لدن المنظومة الاستشراقية وما أفرزت من المحافظة على جزء هام من الذاكرة الشعبية الجزائرية ، بالرغم من تلك الرؤى المعرفية التي اشتغلت على الملحن باعتباره رافدا من رافد التوجه الدراسي الكولونيالي العام ، متبنين طرح إشكالية الأستاذ عادل فوزي مول طبيعة التعامل مع هذا الإرث المتراكم ، هل نقلبه وتعامل معه أم نرفضه نوجه المحاكم التفتيش ومن ثم إلى المحرقة؟ .

### أ- الجهود التدوينية للشعر الملحن عند الأنثروبولوجيين الاستعماريين:

لقد أدركت المنظومة الأنثروبولوجية ما للملحن ، كشكل تعبري تولى ، من أهمية معرفية بغية تعرية العقلية الشعبية ، وسير ميولاتها وتوجهاتها العامة ، ومن ثم أولت الدوائر العلمية الاستعمارية للملحن بعضا من عنايتها ، التي أفرزت انبثاق عديد الأعمال التي انتهجت سبل الجمع حيناً وآليات الترجمة أحيانا ، وطرائق العرض النقدي أحيين أخراة.

ويذهب الأستاذ شعيب مقنونيف في هذا الصدد إلى أن اتجاهات المشتغلين على الملحن من الفرنسيين كانت مختلفة ونواياهم متباينة ، إذ بعضهم قام بدراسته لنوايا استعمارية فركزوا على مضامينه لمعرفة نفسية الشعب أكثر ، قصد السيطرة عليه والتمكن من إخضاعه نهائيا، وتناول بعضهم دراسة الشعر في علاقته بالغناء لذلك ركزوا على شكل القصيدة في أوزانها وقوافيها"<sup>10</sup>.

كما ذكر الأستاذ عبد الحميد حاجيات خلال مقدمته التي وضعها عند تحقيقه لمجموع الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان "لمحمد مرابط" أن هذا الأخير قام بجمع هذه الأشعار بناء على طلب بروصلار" ، إذ يقول: "... وقد جمع هذه المختارات الشعرية أحد أدباء تلمسان يدعى محمد بن محمد امرابط ، ونسخها بيده في رمضان 1271هـ ، الموافق لشهر يولية 1855م وقد ذكر محمد امرابط هذا أنه انتدب إلى جمع هذه الأشعار بطلب من المستشرق الفرنسي (بروصلار) الذي كان يشغل آنذاك منصبا إداريا ساميا بتلمسان ، وإذا كنا نجهد تماما جامع هذا اكتتاب ، فإننا نعرف عن بروصلار أنه كان يولي عناية كبرى لدراسة تاريخ تلمسان وآثارها الإسلامية ومن حسن الحظ أنه عني أيضا بالأدب الشعبي ، وبالموسيقى المغربية ذات الطابع الأندلسي ، فطلب من محمد امرابط أن يجمع له بعض المختارات المشهورة ، من ذلك الشعر الذي اعتاد الناس أن يلحنوه ، وأن يتغنوا به في شتى الجاملات"<sup>11</sup>.

ومن الفرنسيين من قام بنفسه بجمع نماذج متعددة من نصوص الملحن في مؤلف /مجموع شعري ، ومن ذلك ما قام به سونك الذي جمع 117 قصيدة من مختلف طبوع القصيدة ، الجزائري منه والمغربي وحتى التونسي ، وفي كتاب أسماه ، الديوان المغرب في أقوال عرب شمال افريقية والمغرب " ، حيث يذكر أحمد أمين الذي وضع مقدمة للكتاب أثناء إعادة طبعه ، أن سونك التزم ، في مؤلفه هذا بالمكان ، فاختر من كل شمال إفريقيا إلا أن الجزائر وتونس أخذتا نصيبا أكبر في الديوان ، ولم يتحدد الباحث بالزمان فاختر قصيدة للأخضر بن خلوف

من القرن السادس عشر واختار مثلا لابن حسابين من القرن الثامن عشر، كما دون قصائد للفحول من الشعراء الذين عاصروه كابن قيطون وابن يوسف، ومحمد بلخير... لكن الباحث نوع في الموضوعات والأغراض الشعرية<sup>12</sup>.

وقد احترم سونك في مجموعة هذا تقاليد الشعراء والرواة وهوأة الشعر، ف افتتح الباحث ديوانه بقصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو موضوع يقده الشعراء ويفتتحون به قصائدهم حتى في أغراض أخرى، واحتراما لسكان المدينة التي كان يقيم بها اختار الباحث أن تكون القصيدة الأولى لشاعر من عمالة قسنطينة<sup>13</sup>.

وإضافة إلى هؤلاء فقد قام البعض بترجمة لنصوص شعرية ملحونة، كما فعل كثير من كتاب المجلة الإفريقية (*revue africaine*) التي قدمت قصائد عدة مترجمة وكذلك مقالات عن الشعر الملحون بأقاليم مختلفة من الجزائر. ويذكر الأستاذ عبد الحميد بورايو في هذا الصدد أنه من بين الذين قاموا بترجمات لنصوص من الملحون الجزائري المستشرق (هانوط)<sup>14</sup>، الذي اهتم اهتماما خاصا بالملحون.

ويذهب الدكتور محمد الجزايراي (من جامعة تونس) إلى أن ترجمة الملحون التي تعود إلى الفترة الاستعمارية مرت بمرحلتين أساسيتين<sup>15</sup>:

**المرحلة الأولى:** كانت الترجمة فيها تتم لغايات عسكرية استعمارية، فتميزت حينئذ بالانتقائية وغابت عنها الموضوعية، وكانت ذات منهج استعلائي، فهي تخدم مصالحهم ولا تخدم مصلحة الأهالي ولا ثقافته.

**المرحلة الثانية:** وهي التي انطلقت مع مطلع القرن العشرين، وتصدى لها بعض الباحثين.

وقد قام هؤلاء الباحثون بنشر أعمالهم بالمجلات التي ظهرت منذ النصف الثاني من القرن التاسع ك" المجلة الإفريقية " التي تصدر عن الجمعية التاريخية الجزائرية التي كانت الترجمات فيها تتميز بالموضوعية، وفي هذا الإطار لا يمكن إغفال أعمال ألكسندر بولي على سبيل المثال<sup>16</sup>.

كما اهتمت مجلات أخرى بنشر قصائد الملحون الجزائري، ومن بينها مجلة المغرب (*revue maroc*) التي انتشرت سنة 1920 قصيدة للشيخ قدور بن عاشور الزرهوني تحت عنوان *merieme* مريم، وأيضا ظهرت في شهر جوان من نفس السنة ترجمة لقصيدة "راس الموت" (*tête de mout*) لنفس الشاعر في مجلة العالم الإسلامي (*le monde musulmain*) تحت عنوان أغنية مغربية " *un chant maghrébin* بالإضافة إلى أشعار أخرى مشهورة على رأسها قصيدة "الربيع" و"الحمام المسافر"<sup>17</sup>.

كما قام وليام مارسي بتخصيص جزء من كتابه " اللهجة العربية المنطوقة في تلمسان" للشعر الملحون، وخصوصا السنوي منه، أو ما يعرف ب"الحوفي" الذي تشتهر به مدينة تلمسان، حيث جعل الباب الثاني من كتابه المذكور خاصا بمقطوعات من الحوفي، إذ "أورد مارسي في هذا الباب خمسة وعشرين مقطوعة من الحوفي، بعد أن قدم لها

بمقدمة عرف فيها هذا النوع من الشعر الشعبي ، كما خصص جانباً من هذا الباب إلى ذكر النصوص الثرية وأغاني الأطفال التراثية ، والتي يدور مضمونها حول قصص شعبية ودينية "18.

ومنه يمكن القول أننا " نسجل للمستشرقين على اختلاف اتجاهاتهم وتباين نواياهم ، أنهم كانوا أول من دون جزءاً لا يستهان به من هذا التراث الضخم "19.

وقد مثلت هذه المصادر التي كانت نتاجاً لاهتمام المنظومة الاستشراقية بالملحون الجزائري منطلقات مرجعية رئيسية في البحث في هذا المعطى الثقافي لجل الدراسات التي اشتغلت على قصيد الملحون ، وبذلك يمكن القول أنه بالرغم من الغموض الذي قد يكتنف النوايا البحثية للمنظومة الاستشراقية في تعاطيها مع الشعر الملحون ، إلا أنه لا يمكن التغاضي عن الخدمة التي قدمتها هذه المنظومة للتراث الشعري الملحون .

### ب- المدونة الاستشراقية ، ماذا نفعل بالآثار المتراكمة؟

لعل الخوض في مسألة التعامل مع المدونة الاستشراقية من لدن الباحثين اليوم يقودنا إلى إعادة إثارة واستحضار الإشكالية التي طرحها الأستاذ عادل فوزي حول التعامل مع الإرث الأنثروبولوجي الاستعماري بشكل عام " ماذا نفعل بالإرث المتراكم ؟ هل نرسل الأعمال الكافرة إلى محاكم التفتيش وبعدها إلى المحرقة أو استخلاص الدروس والاستفادة منهجياً من جميع التحقيقات التي جرت حتى الآن ... ماذا نفعل بالإرث؟ كيف نستغله ضمن مقارنة جديدة ؟ كيف نتقل من وضعية الموضوع إلى وضعية الفاعل "20.

لقد أثبتت التوجهات البحثية في مجالات الشعر الملحون الجزائري أنه لا يمكن تجاوز المدونة الاستشراقية بما قدمه من نماذج نصية لا تزال تعد بمثابة المصدر والمعين الأساس لعديد البحوث والدراسات الراهنة ، ومن ثم تكون أطروحة إعلان القطيعة مع كل الإرث المعرفي الاستعماري ، باعتباره من "بقايا" الاستعمار غير مؤسسة على رؤى موضوعية ، تخص بتر جزء هام من الذاكرة التراثية .

في حين أنّ الانغماس في الرؤية التبجيلية لهذه الأعمال قد يحمل تقديم هذا التراث في نماذجه المشوهة أو صورته الخاطئة .

إذ قدمت هذه المدونة بعض النصوص لتنسبها لغير أصحابها و بالتالي يحست حقاً واستعدت على التراث تصحيحاً ونحلاً ، ومن ذلك ما وقع فيه سونك الذي نسب قصيدة "يا الواحد خالق العباد" للشاعر التلمساني أبي مدين بن سهلة لأبيه محمد ، ف "المستشرق سونك الذي نسب إليه الأستاذ المحجوب تاريخه نظم قصيدة "يا الواحد خالق العباد" ب 1212 للهجرة ، مع أنه أورد في الديوان المغربي القصيدة غير كاملة وبالأخص الفعل الذي يشتمل على الاسم "محمد" والتاريخ ، وقد أثبتت نسبة هذه القصيدة لمحمد ، فيما بعد ، من قبل الأستاذ بن محمد بلحفاوي وسهيل ديب دون ذكر للاسم بينما انفرد أستاذنا حاجيات برواية تذكر التاريخ "21.

فقد كان من إفرازات عدم التنقيب الأمر ومراجعة رواية سونك إلى إثبات القصيدة لشخص غير الذي أبدعها ، مما جعل الأستاذ شعيب مقنونيف وعند اشتغاله على جمع وتحقيق ديوان أبي مدين بن سهلة أن يرد هذه النسبة ويحضرها ، معتمداً على تاريخ القصيدة كمرجع أساس لعملية النسبة "22. كما أن سونك أسقط العديد من أسماء الشعراء متعمداً فنجد مرة يقول في الإشارة إلى صاحب القصيدة ، قصيدة لأحد لا فائدة من ذكره

"أو يقول أحيانا" لشاعر من عمالة كذا " دون تقديمه صراحة مما أفقد كثيرا من النصوص مرجعيتها الإبداعية التي تجلت في أصحابها .

هذا بالإضافة إلى أن بعضا من هذه المصادر التي حاولت ترجمة بعض النصوص الملحون من لغتها العامية الدارجة إلى اللغة الفرنسية . تكون قد أفرغت النص من قيمة التعبيرية والدلالية الحقيقية ، وذلك تبعا أو إسقاطا على موثق الدارسين من ترجمة الشعر - بوجه عام حيث "إن ترجمة الأدب ، ولا سيما الشعر ، أخذت مكانة متميزة من الحيز الفكري والجدال بين المهتمين بالمسألة ففي تاريخ الأدب العربي نتحدث إلى يومنا هذا عن لعنة الجاحظ الذي يقول: " الشعر لا يستطاع أن يترجم ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حول تقطع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب منه ، أما المترجم الروسي إيفتوشنكو فقد أثار حفيظة كل النساء عند ما شبه ترجمة الشعر بالعلاقة بين جمال المرأة وشرفها عندما قال : " الترجمة الشعر وإلى الشعر كالمراة ، إذ كانت جميلة لم تكن مخلصه وإذا كانت مخلصه لم تكن جميلة " أما الفرنسي بيار ليريس فترجمة الشعر بالنسبة إليه أمر مستحيل والامتناع عن ترجمته أمر مستحيل "23.

فترجمة الشعر الشعبي لا يمكنها أن تقدم صورة حقيقية لحمولات النص الشعورية والتعبيرية وكذا أطره الثقافية ، وبالتالي يمكن أن "خيانة" للنص وقتلا له .

وعليه فإن العودة للإشكالية المطروحة سلفا ، وبالوضع في الحسبان ما سبقت الإشارة إليه ، فإن مقارنة /أطروحة وسيطة التوجه" هي التي تفرض نفسها على الباحث ، ذلك أن الامتناع عن التعامل مع المدونة الاستشراقية والتعامل عليها ، والاكتماء ب " عملية الشتم الكسول " - كما يسميها الأستاذ عادل فوزي- تعد بمثابة قتل آخر يتعرض له كم هائل من نصوص الملحون ، كما أن السقوط في عواهنية "النموذج الاستشراقي يصبح بمثابة الحوم حول حمى "الانحراف" و "الخطأ".

ويبقى الطريق الثالث ، طريق العرض النقدي الذي يتوفى التعامل مع الإرث الاستشراقي بنوع من الفحص الموضوعي والمسألة المعرفية انطلاقا من عرض هذه المدونات على مخابر الحفر وطرائق التحقيق .

ومما سبق يتضح أن التوجهات المعرفية للأنثروبولوجية الاستعمارية لم تكن كلها ضد الشعر الملحون ، ولم تفرغه كلية من قيمة ، بل لقد خدمته بقدر ما تجنت عليه واستغلته ، ومن ثم يمكننا أن نقول مطمئنين أن هذه المنظومة ساهمت في حفظ جزء هام من التراث الشعري الملحون الجزائري ، وأ ، التعامل الموضوعي معها يفضي حتما إلى استجلاء مالها وما يؤخذ عليها ، لأن رفضها جملة وتفصيلا يبخسها حقها و التحمس لها كلية وعدم مراجعتها قد يقود إلى استجلاب نماذج تراثية مشوهة أو مبتورة .

**خاتمة :**

الملحون فن شعبي إبداعي له من مقومات الحياة في ذاته ما يمنحه أهليته للاستمرار والتفاعل مع مختلف القطاعات الإبداعية والنقدية ، بمختلف اتجاهاتها ورواياتها الاشتغالية ، إضافة إلى كونه حقلًا خصيبا للاشتغال المعرفي في ميادين الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية وكذا الحفريات اللغوية والصوتية ، والتي لا محالة ستجد في ذلك التزاوج / التلاقح بين

اللغة الفصيحة واللهجة العامية – بما انبثق عنها من لغة ثالثة تتراوح بين المستويين والتي تتميز عنهما معا وتحقق خصوصيتها مقارنة بهما – مجالات رحبة لإعمال طرائق الدرس والبحث.

ولما كان هذا شأن النص فإن التفاعل المعرفي معه يضحى استجلاء لقيم مغيبية تحت بساطة "اللغة". وقد تنوعت القيم التي يشتغل عليها شاعر الملحون بين الدينية والوجدانية والسياسية والاجتماعية وحتى التاريخية. فشاعر الملحون يصدر مادته انطلاقا من واقع الحياة وقضايا البيئة المحيطة به، وهذا في حدود رؤيته وإدراكه لقضاياها هو.

### الإحالات:

- 1- سعدي محمد: أشكال التعبير الشعبي والوعي الوطني (د.ت)، أعمال الملتقى الوطني حول مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، تيارت 13-14 أكتوبر 2002، منشورات المجلس للغة العربية، الجزائر، ص 333-334
- 2- محمد داود: البعد الأنثروبولوجي للنص الأدبي (2002)، وقائع الملتقى: أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر، تيميمون 22-23-24 نوفمبر 1999، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية CRASC، وهران، الجزائر، ص 95-105.
- 3- المرجع نفسه، ص 95.
- 4- محمد سعدي: الأنثروبولوجيا بين النظرية والتطبيق، دراسة في مظاهر الثقافة الشعبية في الجزائر، رسالة دكتوراه في الأنثروبولوجيا (مخطوط)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2006-2007، 183.
- 5- التليين شيخ: منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 11
- 6- محمد سعدي: أشكال التعبير الشعبي والوعي الوطني (د.ت)، أعمال الملتقى الوطني حول مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، تيارت 13-14 أكتوبر 2002، منشورات المجلس للغة العربية، الجزائر، ص 335.
- 7- محمد سعدي: الأنثروبولوجيا بين النظرية والتطبيق، ص 183-184.
- 8- بن عاشور العربي: هموم الشاعر الشعبي بين القدم والحديث (د.ت)، الملتقى العربي الثاني للأدب الشعبي، الشعر الشعبي بين الهوية المحلية ونداءات الحداثة، من 24 إلى 26 فيفري 2009، جمع وإشراف: نبيلة سنجاق، نشر الرابطة الوطنية للأدب الشعبي لاتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، د.ط، ص 47-48.
- 9- سعادة ياسين: الشعر الشعبي الجزائري، فترة الحكم التركي، رسالة ماجستير في علم الاجتماع الثقافي، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر، 2002-2003، ص 12.
- 10- شعيب مقنونيف، مباحث في الشعر الملحون الجزائري (مقارنة منهجية)، (د.ت)، منشورات مخبر عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، د.ت، ص 54.
- 11- مرابط محمد: الجواهر الحسابان في نظم أولياء تلمسان، تقلم وتحقيق وتعليق، عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 06-07 (من مقدمة المحقق).
- 12- سونك: اللديوان المغربي في أقوال عرب شمال إفريقيا والمغرب، موم النشر، الجزائر، 1991، ص 07 (من مقدمة المحقق)
- 13- نفسه.
- 14- ينظر: عبد الحميد بورايو: الأدب الشعبي الجزائري، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007، ص 37-39.
- 15- محمد الجزائري: في ترجمة الشعر الشعبي (د.ت) أعمال الملتقى العربي الثاني للأدب الشعبي، الجزائر (من 24 إلى 26 فيفري 2009)، الشعر الشعبي بين الهوية العملية ونداءات الحداثة، جمع وإشراف نبيلة سنجاق، منشورات الرابطة الوطنية للأدب الشعبي لاتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، د.ط، ص 160.
- 16- نفسه.
- 17- ينظر:
- Gilber Grand –Guillaume, nedroma, l'evolution d'une medinathese de doctorat, 3ème cycle, EPHE, VI section, pairs, 1970. P190.
- 18- بن عيسى التيجيني: لهجة تلمسان وعلاقتها بالعربية الفصحى، رسالة ماجستير في علم اللهجات، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 1990، ص 306-307.

- 19- شعيب مقنونيف ، مباحث في الشعر الملحون الجزائري ، ص54.
- 20- عادل، فوزي :إشكالية (2002) ترجمة العنصر العياشي ،وقائع الملتقى ،أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر ، تيميمون 22-23-24 نوفمبر 1999.منسق: ندير معروف، فوزي وخديجة عادل ،منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ( CRASC ) ،وهران ، الجزائر ، ص14-15.
- 21- شعيب مقنونيف ، مباحث في الشعر الملحون الجزائري ، ص58.
- 22- ينظر المرجع نفسه ، ص 56-62.
- 23- محمد الجزائري: في ترجمة الشعر الشعبي (د.ت) أعمال الملتقى العربي الثاني للأدب الشعبي، الجزائر (من 24 إلى 26 فيفري 2009) ، الشعر الشعبي بين الهوية العملية ونداءات الحداثة ، جمع واشراف نبيلة سنجاق ، منشورات الرابطة الوطنية للأدب الشعبي لاتحاد الكتاب الجزائريين ، الجزائر ، د.ط ، ص 159.